بسم الله الرحمن الرحيم

أيامي في مصر

الحلقة "الثالثة"

الدكتور / عبدالعزيز بن أحمد بن عبد الله البداح

يوم الخميس الموافق ٠٣ /٠٦/ ١٤٤٣هـ

مرّةً أخرى أعود إلى رحلة الأمل والألم، والمعلوم والمجهول، والقريب والبعيد، والسهل والحَزَن، والسعة والضيق.

مرّت عليَّ تلك السنة ثقيلةً في مشيتها، متباطئةً في سيرها، لو قَدِرْتَ لدفعتها حتى تمضي لتبدأ دراستي في السنة التي تليها .

وعندما كنت في أوّل رحلةٍ لأوّل فصلٍ دراسيٍ كانت نفسي التوّاقة تخاطب نفسي المترقّبة: هذه أوّل خطوةٍ في رحلةٍ طويلةٍ فهل تُرى أبلغ ما أريد أم أقصر عن ذلك؟ فأتجاهلُ هذا الصراع وأحملُ على نفسي وأنقل خطواتي التي تكتب رحلتي في الحياة وترسمُ عنوانَ مستقبلي وتكتبُ حروفه.

وواجهتُ نفسي حينها أنّي أمام اختبارٍ صعبٍ إما أن أنجح فيه أو أخفق، والإخفاق سيكون له آثاره النفسية والاجتماعية، لذا عزمت أن أبذل جهدي ووقتي في تحقيق غايتي ولا أنشغل بغيرها.

وكنت دائمًا ما أتمثّل قول القائل:

إذا ما على المرءُ رامَ العُلا

ويقنعُ بالدونِ منْ كانَ دونا

وعرفتُ في ذلك الحين وتيقّنتُ أنّ التوفيق والنجاح في الإقبال على النفس والحرص على ما ينفعها والإعراض عما سوى ذلك، ولا زلت أتذكر حين كنتُ صغيرًا ضغطة كفّ والدي على كفي إذا كنّا نسير معًا والتفتُ لأرى أناسًا أو حادثًا وهو يقول: "انظر أمامك" يرمي **ألا تشتغل بغير هدفك ولا تهتمّ لغير سبيله**، ورأيت هذا واقعًا في حياته فلم أرهُ يتحدث يومًا عن أحوال الناس الخاصة أو يتتبّع أخبارهم، وقال لي أحدهم مرةً: إذا رأيتُ والدك تذكرتُ الحديث النبوي: ((عليك بخاصّة نفسك)).

ورأيتُ أنّ أوّل دركات الخذلان الاشتغال بالخلق بتتبع عثراتهم وتلمّس هنّاتهم والبحث عن زلاتهم.

ولّما كنت أتراءى طول الطريق كنت على يقينٍ أنّ الله تعالى يعلم عناءَ الترّقب، ونَصَبَ الانتظار، وجَهْدَ الارتهان وستكون العاقبةُ حميدةً والغايةُ جميلةً.

وفعلًا في رحلةٍ امتدت ما يزيد على خمس عشرة سنة ابتدأتْ من سنة "١٤٢٠" آثرتُ الانقطاع، ورغبتُ في الخلوة، وملتُ إلى العزلة.

قضيتُ جزءًا من انقطاعي في الأسفار المتكرّرة، والرحلات المتعاقبة للدراسة أو البحث .

وكما قيل:

ما في المقامِ لذي عقلٍ وذي أدبٍ

من راحةٍ فدعْ الأوطانَ واغتربِ

والحقُّ أن تلك المرحلة وإن اتسمت بالجدّ والجفاف، وغَلَبَ عليها التعب والحزم، إلا أنها لم تخلُ من متعةٍ وأنسٍ، وحلاوةٍ وجمال.

بل لعلك لا تستغرب أيها القارئ أنّي إن خرجتُ خلالها للنزهة أو لقاء صديقٍ أو صاحبٍ إلا وجدتُ ما يحملني على الرجوع إلى بيتي والاعتكاف في مكتبتي.

وكما قال الأوّل:

ما تطعّمتُ لذّةَ العيشِ حتى

صرتُ للبيتِ والكتابِ جليسا

ليسَ شيءٌ أعزَّ عندي من العلمِ

فما أبتغي سواهُ أنيسا

ولم يكن طلب العلم أو الاشتغال بالبحث السبب الوحيد في إيثار الانقطاع وتقديم الخلوة والميل إلى العزلة بل كانت الرغبة في السلامة، وطلب صفاء العيش، وهذه لم تحصل، إذ لمْ تخلُ تلك الفترة من تكديرٍ وتنغيصٍ، ولا ريب أنه لا راحة للمؤمن إلا في الجنّة، وأنّى له بالصفاءِ في حياةِ الكدر، والراحةِ في دار التعب.

وكما قال ابن الورديّ:

ليس يخلو المرءُ من ضدٍّ

ولو حاولَ العزلةَ في رأسِ جبلْ

وكانت تمرّ عليّ أوقاتٌ ليست بالقصيرة لا أخرج إلا إلى الجماعة والجمعة، فتتملّكني أحيانًا الوحشةُ حتى أتمثّل قول القائل:

عَوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذْ عَوى

وصوّتَ إنسانٌ فكدتُّ أطيرُ

لكنّي أسلّي نفسي بالقراءة وتنويعها، وأُسرّي عنها بالبحث والمذاكرة، وأُلقي في رُوعي أنّ الوحشة مع السلامة خيرٌ من أُنسٍ محفوفٍ بكدر.

وأَلفتُ العُزلة وأنِسْتُ بالانقطاع فالتزمتها بعد انتهاء فترة الدراسة والبحث أيضًا إلا من دروسٍ أُلقيها في المسجد .

بل إنّي أذهبُ إلى أبعدَ من ذلك في ترك المنافسة والتزاحم على ما يطلبه الناس وينشدونه، ودائمًا ما يَعْرِضُ لي الأثر القائل: "ازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس".

وفي الفصل الأوّل أرسل لي الأستاذ "محمود حفني" مقررات تلك الفصل استعداداً للاختبار وكانت في الفلسفة اليونانية، والفلسفة الأوربية، والقرآن الكريم، والتصوّف، والمذاهب والتيارات وصلتني عن طريق صندوق البريد.

وأيام الاختبارات في الجامعة تطول لتبلغ شهرًا، لأنها تقتصر على اختبارين كلّ أسبوع، فكانت فرصةً للمذاكرة لكنها كانت مملّةً من جهة أخرى، خاصةً أنّي تعوّدتُ أنّ الاختبارات في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لا تزيد عن أسبوع ونصف.

ومما تتميّز به الدراسة في "الأزهر" أنّ الطالب في مرحلة البكالوريوس وباصطلاحهم "الليسانس" يختبر في كلّ فصلٍ دارسيٍ في سبعة أجزاءٍ ونصفٍ من "القرآن الكريم" يُضاف له ما عليه من الفصول السابقة حتى إذا كان في آخر فصلٍ دراسيٍ اختبر في القرآن كاملًا، ويكون الاختبار تحريريًا وشفهيًا.

ويُعاد الاختبار في القرآن كاملًا في اختبار قبول الماجستير وقبل مناقشة الرسالة أيضًا، ويتكررّ الأمر في مرحلة الدكتوراه.

وهذا عامٌ في كلّ الكليات والتخصّصات والمراحل الدراسية، ولعلّ هذا أحدُ أسباب كثرة حفّاظ القرآن في مصر.

ونزلتُ في القاهرة لأداء الاختبار، وسكنت في عمارات التوفيق، وهي مكانٌ معروفٌ مشهور، وكان سكننا بين مسجدين كبيرين. ونمرّ عند خروجنا إلى الجامعة بمطعمٍ فنسمع صوت "محمد صدّيق

المنشاوي" يصدح بصوته العذب الذي يتسلسل إلى القلب ليضفي سكينةً وهدوءًا، يكدّر ذلك أنّ المطعم نفسه بعد العصر يُرسل عبر جهاز التسجيل أصوات الغناء والمعازف.

وهذه الظاهرة يراها كلّ من سافر إلى القاهرة تضاف إلى مظاهر أخرى يختلف النظر في تفسيرها، فربما ظنّها البعض علامةَ خيرٍ في المجتمعات الإسلامية أو صورةً واقعيةً للجهل بالدين، وربما رآها البعض تناقضًا بيّنا .

والحقيقة أن هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر تُفسَّر بتحوّل التدين وشعائره إلى طلب البركة والخير فحسب، وربما تندرج ضمن ظاهرة "التديّن الجديد" الذي يأخذ بجوانب من التدين كالحرص على الأذكار والدعاء وترك ما عداها، وهذا يعود إلى أنّ بعض المسلمين يَرجعون في التزام مظاهر التدين إلى ما يعود بالنفع المادي والاستزادة الدنيوية أو دفع الضرر عن النفس والمال، وهذا اتجاهٌ قديم، لكنه ترسّخ في السنوات الأخيرة عبر من يُسمونهم "الدعاة الجدد" كعمرو خالد، ومصطفى حسني، ومعتز مسعود، وغيرهم.

ويتسم هذا الاتجاه بالإخلال بالسنن الظاهرة، وتجاوز قضايا الحجاب والاختلاط والعلاقة مع غير المسلمين.. ويركّز في أحاديثه على الرقائق مستخدمًا القصصَ والحكايات.

واستطاع هذا الاتجاه التأثير في مساحاتٍ معينةٍ من الناس لموافقته أهواءهم، ومجاراته واقعهم، واستجابته لضغوطه، على أنه عند التشخيص لهذا الاتجاه يظهر أنه نخبويٌ وله جمهوره الخاص، وهذا أحد أسباب فشله وإخفاقه، وتراجع رموزه وضمورهم؛ لأنّ من أعظم خصائص الإسلام أنّ دعوته عامةٌ عالميةٌ .

وهذا الاتجاه ليس خاصًا بمصر بل هو عامٌ في العالم الإسلامي، دفع إليه المعاني الصوفية التي ترسّخ للإرجاء، وتؤخّر العمل، وتهوّن الفرائض، وتُسقط التكاليف .

وأذكر حينها أنّي حضرت خطبة "جمعة" قال الخطيب فيها: "اعملوا ما شئتم إذا كان في قلوبكم لا إله إلا الله".

ولا بد من القول أن هذه الاتجاهات والشخصيات القائمة عليها لا تعدو أن تكون ظواهر تربو فترةً ثم تخبو وتُنسى شخصياتها وينتهي بها الأمر إلى الانزواء والانكفاء.

وكان هذا الاتجاه وغيره من الاتجاهات الدعوية المخالفة للسنة هدفًا لأعداء الإسلام في اتهام رموزه بالتلوّن في المواقف، والتكسّب بالدين، والبحث عن الشهرة، ثم سرت هذه الصورة المشوّهة عن هذا الاتجاه وغيره لكثيرٍ من المسلمين. ومرّ بي في أثناء بحثي عن "الانحراف" و "الإلحاد" أنّ من أسباب ذلك، وليس بمسوّغٍ له إطلاقًا، أنّ بعض ضحاياه أصيبوا بصدمةٍ عنيفةٍ عند ظهور هذه الاتجاهات على حقيقتها وسقوط الأقنعة عن وجوه رموزها فدفعهم ذلك إلى الانحراف والإلحاد.

وكنت أعلم حينها أن الذي يَعْقل القرآن، ويتأمل السنة، ويُدرك قواعد الدين، ويُبصر سنن الحياة، ويُلمّ بحركة التاريخ يجزم بسقوط كل دعوةٍ منحرفةٍ تُعرض عن الهدي النبوي، وتتجاهل أصول الاعتقاد، وتتنكّبُ لمنهج السلف، ويوقن بتردّي كلّ داعيةٍ جعل الدين مصدرًا للاسترزاق، ووسيلةً للتكسّب، ومعبرًا للشهرة والظهور، ومركبًا للعلو في الأرض وتصعير الخدّ للناس.

وهذا من تغير الزمان وتقلب الأحوال الذي يغيض فيه الصدق ويفيض الكذب، وتخالف السرائر العلانية، فتُشترى المبادئ وتُكترى، ويُعرض "الدين" في سوق "من يزيد"، وتُشرع دكاكين بيع المروءة والضمير، وقد يصل الحال أن توهب وتُهدى من غير مقابل.

وجاء في الأثر النبوي وصف هذا الزمان الذي ترى فيه من نَصَبَ نفسه أمينًا على حمى الشريعة راتعًا فيها، وتُبصر من يزعمَ أنه من المدافعين عنها وهو معتدٍ على جنابها، ومن يُظهر الزهادة والتقشف وهو يسابق أهل الدنيا إلى دنياهم، ومن يُدرّ دموع التخشّع؛ ليغسل بها ما بقي من دينه ومروءته.

والعجب أنّ ظاهرة "التديّن الجديد" تقوم وتمدّد، وتَقْوى وتُؤثّر، وتَلْفِتُ نظر الغرب وباحثيها ومراكز الدراسات فيها فَتَصْدُرُ دراساتٌ وتقاريرٌ وكتبٌ عنها لكنها لم تَلْفت نظر الباحثين في العالم العربي والإسلامي!!

ولعلّ السبب في ذلك ضعف مراكز الدراسات في العالم الإسلامي إن وُجدت، ولأن هذه الدراسات تقوم على التتبع والاستقراء، والبحث عن الشواهد، وتحليل العناصر، وتفكيك الأركان، وهذه تحتاج إلى مُكْنَةٍ خاصةٍ وقدرةٍ معينةٍ يفتقدها بعض الباحثين.

وفي ذهابي للكلية أوّل يومٍ من أيام الاختبارات لفت نظري مسجد صغيرٌ قريبٌ من الجامعة تُميزه "قبةٌ" وعليه لوحةٌ كُتب عليها هذا مقام العارف بالله "صالح الجعفري".

وكان هذا أوّل ما بدأت أُلاحظه خلاف العقيدة الإسلامية الصحيحة، تبعه مشاهداتٌ أخرى، ففي مسجد "الحسين" "قبرٌ" يُزعم أنه للحسين يقف عنده الجاهل خاشعًا سائلًا متضرعًا، ورأيت من يصلي أمام القبر ومن يتمسّح بعتباته وحائطه الزجاجي.

ورأيت في مسجد يُنسب للسيدة "زينب" ضريحًا معظّمًا عند بعض الجُهّال يقصدونه ويدعون عنده ويستغيثون به، وهذا "المسجد" هو الذي كان أخيرًا يُلقي فيه الشيخ "الشعراوي" درسه المشهور في "التفسير"، وقبل ذلك كان يُلقيه في مسجد "الحسين".

وكان من الكتب التي اقتنيتها في تلك الفترة: "مساجد مصر وأولياؤها الصالحون".

وهو يرصد ويتتبع مقامات وقبور "الأولياء" في مصر.

ولم تكن زيارة الآثار والمتاحف تستهويني، ولذا فلم أزر أشهر الآثار في مصر كالأهرامات والمتحف المصري وغيرها فترة إقامتي، وإنما شاهدت تلك الأضرحة لمروري بها .

وهذه الأضرحة وإن كانت مزار الجهال إلا أنّ الاتجاه السلفي -الذي يدعو إلى التوحيد الخالص ويحذّر من الشرك والبدع -بدعاته وعلمائه وكتبه ضيّق امتدادها وحصرها في زاويةٍ وجعلها كمريضٍ يعيش على جهاز تنفسٍ صناعيٍ بترويج دعاة الضلال، وتزيين شيوخ الشرك، واستغلال تجّار الانحراف .

وفي هذا السياق أذكر قصةً حكاها لي "زميلٌ مصري" وهو من عوّام المسلمين لكنْ فيها دلالةٌ مهمةٌ، لمّا مرّ أقارب له بمسجد "الحسين" فتوقفوا للصلاة فيه إلا شابًا منهم نشأ في السعودية رفضَ ذلك مستنكراً الصلاة في مسجدٍ فيه "ضريح".

بل أذكر أنّ طالبًا مصريًا درس معي في الكلية أستهجن وجود قبرٍ في مسجد "الحسين"، وأشار أنّ بعض الدراسات تُشير إلى أنّه قبرُ نصراني، على أنّ هذا الطالب من عموم الطلاب وليس بطالب علمٍ أو صاحب دعوةٍ سلفية.

وسألني أحد الطلاب المصريين على سبيل التنبيه هل صلّيتَ في الجامع الأزهر؟ زاعمًا أنّ فيه أضرحةٌ لكنّها غير ظاهرةٌ للناس، وسألتُ عن ذلك فقال لي أحدهم: أنّ الأضرحة في غرفٍ جانبيةٍ عليها أبواب موصدةٌ.

ولعلي أذكر لك في حلقةٍ قادمةٍ الاتجاه السلفي في مصر وشخصياته ورموزه ومقدار تأثيره الذي لمسته في المجتمع.

رأيت الدكتور "محمد المُسيّر" في طُرْقةٍ في الكليّة وقد درّسني مادة "التصوف والأخلاق" في فصلٍ قادم، فشدّني إليه لبسه الأزهري وسْمْتُه ووقاره، فذهبت مع زميلٍ لي للسلام عليه، فعرّف بي زميلي بأنّي طالبٌ من السعودية أدرسُ في قسم الفلسفة فالتفت إليّ الدكتور مستغربًا قائلًا: ألستم تكفرونهم!!

وكانت هذه من الدكتور "المسيّر" لمزًا وعيبًا!! وتكرّر مثل هذا من شخصياتٍ أخرى سأذكرها في حينها، لكنّي لا أزيدُ في مقابلتها على التبسم والترحاب بفضيلة الدكتور!! إيثاراً للتجاهل والترفّع، بل إنّ أحدهم قابلني بإساءةٍ بالغةٍ فلم أردّ عليه فخجلَ، وصارت بيني وبينه علاقةٌ طيبةٌ بعد ذلك.

والحق أنّ هذه الشخصيات التي صدر منها لمزٌ وعيبٌ قليلةٌ، وكان غالبُ من التقيتُ بهم على قدرٍ من الأدب والوداعة والتودّد واللطافة مع اختلافهم معي في المنهج والرأي.

واطلعت على بحثٍ للدكتور "المسيّر" في مجلة "كلية أصول الدين" حول صفات الله تعالى جعلَ فيه الشيخ الإمام "محمد عبدالوهاب" وأتباعه -حسب تعبيره- مجسّمةً في الصفات!!

وعلمت أن الدكتور "المسيّر" تُوفّي بالكبد، وهو داءٌ قاتلٌ ينتشر في مصر، يُعزى انتشاره لتلوّث مياه الشرب، وتعرّفتُ على أُناسٍ بعدها مصابين به.

والدكتور "المسيّر" سبقَ له العمل رئيسًا لقسم الدراسات الإسلامية لفرع جامعة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنوّرة.

وسمعت عن تهجّم الدكتور "طه الدسوقي حبيشي" أستاذ العقيدة في الكلية على المنهج السلفي ورموزه في محاضراته، واشتريت كتابًا له قام فيه باستلال ردّ "أحمد بن جهبل الحلبي" على شيخ الإسلام ابن تيمية من طبقات الشافعية، وطبعه مستقلاً في كتابٍ سمّاه "الحقائق الجلية في الردّ على ابن تيمية فيما أورده في الفتوى الحموية" وقدّم له بمقدمةٍ أساء فيها لابن تيمية كثيرًا، ورماه بالجهل والغرور!!

ولّما رأيت موقف "محمد المسير" و "طه الدسوقي" من العقيدة السلفية إضافةً إلى مواقف أخرى رأيتها من طائفةٍ أخرى من الأساتذة والمشايخ سأذكرها في حينها، أخذت أسبر هذا الموقف محاولًا تكييفها وتشخيصها وتحديد عوامل ظهورها .

ليس بخافٍ أن "الأزهر" يتبنى العقيدة "الأشعرية"، وأساتذته منهم من يتبنّاها منهجًا وعن إصرارٍ وفيه نَفَسُ عنادٍ وتعصّب، ومنهم من يتبنّاها تقليدًا ومجاراةً، ومنهم من يتبنى المنهج السلفي صراحةً في شخصيات، وإخفاءً في شخصياتٍ أخرى لأسبابٍ قد يكون من أبرزها الهروب من التصنيف وما يترتب عليه من آثار.

وفي هذا السياق فإنّ الكتاب المقرر في "التوحيد" الذي دَرسْتهُ في كلية "أصول الدين" كتاب: "شرح المواقف" للجرجاني، وهو من كتب متأخري الأشاعرة.

وأذكر أن الدكتور "محمد طلعت أبو صير" رحمه الله، وهو ممن ناقشني في رسالة الماجستير، طلب منّي كتاب "رسالة إلى أهل الثغر" لأبي الحسن الأشعري الذي كتبه في طوْر تحوّله لمذهب أهل السنة، وأشار إلى أنه لا يرغب أن يعرف أحدٌ بميوله السلفي.

وفي منهجية الماجستير في كلية "الدعوة الإسلامية" كان أحد مراجع كتاب العقيدة الذي كتبه الدكتور الذي يدرّسنا: "الكواشف الجلية عن معاني الواسطية" للشيخ "عبدالعزيز السلمان"!!

وهذه القضية تصلح لأن تكون موضوعًا لرسالةٍ علميةٍ يُتتبع فيها مظاهر التأثر بالمنهج السلفي وأسباب التأثير المعاصرة .

ورأيت بعدها رسالةً علميةً بعنوان: "الاتجاه السلفي في مصر" وهي ترصد الشخصيات المؤثرة في ذلك كمحمد رشيد رضا ومحمد حامد الفقي وغيرهما، لكنها لم ترصد الحركة المعاصرة للسلفية وتأثيرها .

وكان ممن له موقفٌ سلبيٌ من المنهج السلفي الدكتور "أحمد الطيب" شيخ الأزهر الحالي، فإنه لّما تولى رئاسة جامعة الأزهر حينها، انتشر خبرُ تشكيل لجنةٍ لمتابعة الشخصيات السلفية من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة، والسبب في هذا الموقف أنّه صوفيٌ من أسرةٍ صوفية.

وكان قد حصل له موقفٌ في "السعودية" عندما قدم إليها مدرسًا في أحد كلياتها بالرياض في بدايات القرن الهجري، إذ جرى نقاشٌ حادٌ مع أحد الطلاب حول مسائل عقديةٍ انتهت برغبته عن التدريس ورجوعه إلى بلده.

وإن كان التعصّب يقف خلف مواقف هؤلاء من المنهج السلفي ورموزه في أحوالٍ كثيرةٍ، فإن الجهل بمذهب السلف وقواعده عاملٌ مشتركٌ بينهم؛ لأنهم لم ينظروا في كتبه ومصادره بتجردٍ وموضوعيةٍ وإنصاف، وإنما وقفوا عليه من خلال كتبِ ومقالاتِ علمائهم وشيوخهم.

ولا يغيب عن الباحث في هذا الموضوع أنّ بعض الشخصيات التي تهاجم المنهج السلفي مدفوعةٌ أو مستأجرةٌ، ووقفت في هذا على كُتبِ الدكتور "أحمد راسم النفيس" ونشاطه الإعلامي، وهي تمثّل هذا الاتجاه، وتبيّن لاحقًا تحوّله إلى المذهب الشيعي وعلاقته بإيران، وينسحبُ الأمر أيضًا على الدكتور "أحمد عبدالرحيم السايح" الذي كان له موقفٌ عدائيٌ من الدعوة السلفية ورموزها مع مشاركته في قنواتٍ إيرانيةٍ وانتسابه لمؤسساتٍ فيها.

وتقف الدوافع النفسية أو المواقف الشخصية في تكوين موقفٍ عدائيٍ للسلفية ورموزها، ويظهر في هذا السياق الدكتور "علي جمعة" الذي كان في بداية أمره على جادّة السلفية ودرسَ على علمائها وحصل له موقفٌ في السعودية أدّى به إلى السجن والإيقاف، وبعد رجوعه تحوّل إلى مهاجمٍ شرسٍ على السلفية ورموزها.

ولن أنْسَ في هذا المقام أنّ الدكتور "طه دسوقي" يُرددّ في محاضراته "النفط" وأنّ السلفيين فرضوا منهجهم عن طريقه!!

وأحيانًا يدخل في السياق التلقّي عن المستشرقين أو دواوين التاريخ، وأذكر أنّي قابلت الدكتور "محمد صابر عرب" وهو أستاذٌ كبيرٌ في التاريخ، وكان حينها رئيس مجلس الهيئة القومية للكتاب، وأصبح فيما بعد وزيرًا، فكان يتحدّث عن "الوهابية" -حسب تعبيره- بفهمٍ مغلوطٍ ورؤيةٍ قاصرة على أنها فرقةٌ شاذةٌ وجماعةٌ منحرفة!!

وإذا كان الأزهر يتبنى المنهج "الأشعري" فيقابله "كلية دار العلوم" بجامعة القاهرة التي يغلب على أساتذتها التزام "المنهج السلفي" وكنت قدّمتُ عليها للالتحاق بها إلا أنّ تشددهم في الزام الطلاب بحضور المحاضرات جعلني أتراجع عن ذلك مخافة ألا أتمكن من الجمع بين الدراسة فيها

ودراستي في الأزهر، وخلال زيارتي لها جلست مع الدكتور "محمد الجليند" والدكتور "مصطفى حلمي" وهما من كبار أساتذة الكلية ومشايخها، وكانا في غاية اللطافة والأدب.

ولذا فأنتَ ترى أنّ موضوع الموقف من السلفية ومنهجها ورموزها شائكٌ ومتشابكٌ وتحيط به عوامل متعددة، وتحمل عليه دوافع عدّة، تحتاج إلى استقراءٍ وتتبعٍ يأخذ وقتًا وجهدًا مع كدّ الذهن وإعمال الفكر لتوصيف الواقع والوصول إلى نتائجَ صحيحةٍ متماسكة.

ويتّسم أكثر طلاب الكليات الشرعية واللغة العربية في الأزهر بالضعف العلمي والشخصي لأن الذي جاء بهم لهذه الكليات معدلاتهم الضعيفة، وعرفتُ أنّ ذلك استثناءً لما زرتُ كلياتٍ علميةً أخرى ورأيتُ طلابها في تميّزهم العلمي والشخصي.

ولعلّ السبب في ذلك ضعف مستوى كليات التعليم الديني، وقلّة الفرص الوظيفية لخريجيه. لذا يُؤْثِرُ الطلاب وأهاليهم الكليات العلمية، على أنّه في الوقت نفسه مرّ عليّ في الكليّات الشرعية طلابٌ متفوّقون وجادّون ولديهم رغبةٌ في العلم وطموحٌ إلى التفوّق.

وكليّة أصول الدين التي أدرس فيها تقع في "جامعة الأزهر" في مبنى أثريٍ قديمٍ يضمّ كلية الشريعة والقانون، وكلية أصول الدين، وكلية اللغة العربية في حيٍ يسمى "الأزهر" أو "الدّرّاسة" أو "الحسين"، وبقيّة الكليّات كالطب والهندسة وغيرهما في المدينة الجامعية الجديدة في مدينة "نصر" إضافةً إلى كلية "الدعوة الإسلامية" التي درست فيها "الماجستير" في السنة التي تليها.

وأمام "جامعة الأزهر" مجموعةٌ من المكتبات رأيتُ على سلةٍ خارجيةٍ لإحداها كتبُ "محمد علوي المالكي الحجازي" وهو "صوفي مؤثّر" فوجدتني مندفعًا لشرائها ولم أكن أعلم حينها سرّ هذا الاندفاع أو مدى حاجتي لهذه الكتب، ليتبيّن ذلك بعد ما يزيد على عشر سنوات، عندما اخترت عنوانَ رسالتي الدكتوراه في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة: "حركة التصوّف في دول الخليج العربي.. دراسة تحليلية" وكانت تلك الكتب والمراجع مهمةً في بحثي وعمدةً فيه.

وعلمتُ فيما بعد أنّ "محمد علوي المالكي" له زياراتٌ متكررةٌ لمصر، وله جهدٌ وتأثيرٌ فيها، وكان أوّل ظهوره الإعلاميّ من خلال قنواتها.

وفي اليوم الأول للاختبارات استغربت لما رأيت رجلًا كبيرًا قارب الخمسين يمضي مع الطلاب إلى قاعات الاختبار، وبعد الامتحان كان الأستاذ "محمود حفني" حريصًا على أن أتعرف عليه حتى وضع يدي في يده وقال لي: "الزمه ولا تتركه".

وهذا الرجل الكبير هو الحاج "مصطفى رضوان البهنساوي" ومن فضل الله تعالى عليّ أن تعرّفت عليه فرأيت فيه ما تفرّق في غيره من الكرم والمروءة، والدّعابة والنُّبْل، مع فطنةٍ وسرعة بديهةٍ وهمّةٍ وطموح، وتوطّدت علاقتي به واستمرت، ولا أنسى معروفه عليّ.

حصل الحاج "مصطفى" على البكالوريوس في كلية التجارة في بداية حياته، وبعد استقامته قرب الخمسين من عمره درس في "كلية أصول الدين" في تخصص "الدعوة"، ثم أتبعها ببكالوريوس في "اللغة العربية" من "كلية العربية".

وأكثر ما جذبني إليه: لطافة ذوقه، ودماثة خلقه، وخفّة ظلّه، ودوام وفائه، وكان جمعٌ من زملائه يصفونه بمثلٍ مصريٍ دارجٍ : "صاحب صاحبه" ويريدون به من يحفظ الصحبة ويُبْقي على المودّة.

وقد قيل:

اشددْ يديكَ بمنْ بلوتَ وفاءهُ

إنَّ الوفاءَ من الرجالِ عزيزُ

وقال آخر:

للهِ درّ النائباتِ فإنّها

صَدأُ اللئامِ وصَيْقَلُ الأحْرارِ

وكان من دعابته أن أخبره أحدهم بأنه خطب الجمعة، فردّ عليه بقوله:

خَطَبْتَ فكنتَ خَطْباً لا خطيبا

ومهزلةً علىَ الفصحَى وعَارا

والشطر الأوّل من البيت "لشوقي"، ولا أدري مصدر الشطر الثاني .

وتوطّدت علاقتي بالحاج "مصطفى" وصرنا نذهب للكلية ونرجع سويا، وفي المساء نلتقي مرّة أخرى.

وأظن أنّ مسألة الصحبة تهمّ أكثر الناس فهي مصدر أُنسٍ لهم وهي مقلقةٌ ومؤذيةٌ لهم أحيانًا أخرى، فمنهم من يشكر معروف صاحبه ويرى نعمته عليه ويشيد بجميل خلقه ويتفيأ ظلال حسن علاقته معه، ومنهم من يتألّم للؤمِ صديق، ويتوجّع لغدرِ صاحب، ويضيقُ بجفاءِ نديم.

ورأيتُ في حياتي من هذين النوعين كثيرًا، ولكلٍ منهما من الصنائع ما يفوق الوصف ويلامس الخيال طيبًا وخبثًا، ووفاءً ولؤمًا، ورفعةً ودناءة، وسماحةً وشحًا، وصار المرء بين هذا وهذا، فإذا أساء إليه لئيم أحسن إليه كريم، وإذا آذاه دنيء دفع عنه رفيع، وإذا مكر به خبيثٌ واساه طيّب، وإذا ضنّ عليه شحيحٌ أكرمه جوادٌ سمحٌ، فسبحان من خلق هذه الدنيا وجعل فيه من الأضداد ما يُبهر العقول ويُدهش الأحلام ويُحيّر الألباب في تقلّب النفوس وتنوّعها، واختلاف الطبائع وتباينها، وتغاير الخِلال وتلوّنها.

وإذا كانت حروف الكلمات تُكتب عادةً بالحبر والمداد، فإنّ صور وفاء النفوس ورقيّها تُكتب بمدادٍ أبيضٍ على صفحاتٍ مشرقةٍ تًطيّبُ بالكافور في ذكرى جميلةٍ وطَيْفٍ رائقٍ لا يُنسى .

و تُكتب صور شحُّ النفوس ولؤمها بمدادٍ أسودٍ على صفحاتٍ مظلمةٍ في ليلٍ طويل، وحُرقةٍ لازمةٍ لا تزول، وذكرى مؤلمةٍ لا تُبارِح، وجرحٍ عميقٍ لا يندمل.

بل مرّ وسيمرّ من يؤذيك وَيَجْهد في ذلك ويرجعُ ويتهمك بأذيّته، ومن يكذبُ عليك ويعلم أنه يكذب ويرتدّ عليك ويتهمك بالكذب.

وكما قيل :

صادقتُ بعضَ القومِ حتى خانني

وحفظتُ منه مغيبه فرماني

زَعَمَ النصيحةَ بعدَ أنْ بلغتْ بهِ

غِشًّا وجازى الحقَّ بالبهتانِ

ومرّ وبي وسيمرّ بك من يظهر الودّ ويضمر الكيد، ويُعلن المحبة ويضمر العداوة، ويدعّي إشفاقًا ونصحًا وانطوى قلبه على دَغَلٍ وغش.

وكما قيل :

إنّ اللئيمَ وإنْ أراكَ بشاشةً

فالغيبُ منهُ والفعالُ لئيمُ

وقيل:

والبِشْرُ في وجهِ اللئيمِ تملّقٌ

فاحْذرْ به استدراجهُ بفسادِ

فإن قلتَ: أين هؤلاء؟ قلتُ لك: ليس بينك وبينهم إلا غطاءٌ يَكْشفُ حقيقتهم، فتستحوذ عليك الدهشة ويستولي عليك الاستغراب، فترى أناسًا لا تعرفهم، ينزعون جلودهم وتظهرُ وجوههم بشاعةً وقبحًا.

وما حَمَلَ قلمي أن يسترسل في الكتابة عن ذلك إلا من تأثير صحبتي للحاج "مصطفى" فقد امتدت علاقتي به لأكثر من عشرين عامًا ولا تزال، جمعنا ذهابٌ ومجيءٌ، وروحةٌ وغدوةٌ، وسفرٌ وإقامةٌ، ومالٌ وطعامٌ، فكان كحُلمٍ جميلٍ، وطَيْفٍ رائقٍ، لا يجرح ولا يؤذي، ولا يعاتب ولا يشق، حديثه لا يُسأم، ومجالسته لا تُملّ.

وكما قيل في مثله:

لا يُسعدُ الناسَ في قولٍ وفي عملٍ

إلا امرؤٌ طيّبُ الأخلاقِ والشيمِ

بل لا أكون مبالغًا إذا قلتُ لك إنه كان حريصًا ألا يأتي من قِبَلِهِ ما يُكدّرنّي أو ينغّص عليّ، أذكرُ أنّي في أوّل فصلٍ رسبت في مادتين لأسبابٍ سأذكرها في الحلقة القادمة، فلم يشأ أن يُخبرني ابتداءً، وعندما سألته عن النتيجة طلب مهلةً لمعرفتها، ثم تعلّل بأنه ربما يكون في النتائج خطأ، إلى أن انتهى الأمر بمعرفتي لما أردت معرفته.

وهذا ما يفرضه معنى الصحبة الحقيقي ألا تنقل لصاحبك ما يكدّره مما لا يضرُّ جهله به.

وسترى في حياتك من يحرص على أن ينقل لك ما يسوءك شماتةً أو غشامةً، أو يكتم عنك ما تنتفع به حسدًا وكيدًا.

ويمرّ علينا في حياتنا شخصياتٌ لا نعرف عظمتها وأهميتها إلا عند فقدها أو الاحتياج إليها، لذا كنتُ حريصًا في حياتي على بقاء حبل الودّ موصولًا مع تلك الشخصيات؛ لأنّه ليس لهم بديل، وفقدهم لا يعوّض.

❖❖❖❖❖❖❖